

الإمام الخميني وتبيين الأهداف من دراسة الاستعماريين لعادات وتقاليد الشرق.

بسم الله الرحمن الرحيم

يؤسفني ما أشعر به من عجز الحديث حينما ألتقي السادة الأفاضل، فأنا أولاً: شيخ يحول كبر سني دون إيصال صوتي إلى خطى معدودة، وثانياً: فإن الأوضاع المأساوية التي تمر بها البلدان الإسلامية عموماً، وإيران خصوصاً، تسلب الإنسان الراحة وتفقد القدرة على عمل شيء.

كنت قد عقدت العزم في الحضور والتحدث إلى السادة المجتمعين حول بعض الأمور، والتعبير عن بعض الآلام التي تعترض قلبي، إلا أن بعض الأمور حالت دون ذلك.

على أي حال فإن أوضاع البلدان الإسلامية، وخصوصاً البلدان الغنية كإيران التي تنصدر قائمة تلك البلدان، كانت موضعاً للدراسة من قبل هذه القوى الكبرى. فإن تمعنتم في الأمور سترون أن هؤلاء الذين وفدوا إلى هذه البلدان تحت قناع السياحة . مثلاً . كانوا سياسيين مكلفين بدراسة أوضاع بلدان الشرق، فقد كانوا يأتون لدراسة حتى الصحارى القاحلة متحملين في هذا السبيل أنواع المشاق والمتاعب، مسافرين على ظهور الإبل في القوافل لدراسة جغرافية تلك البلدان، مركزين أنظارهم على ما تختزنه تلك البلدان من ثروات مختلفة، كالذهب والماس والنفط والغاز وغير ذلك، فرسموا خرائط لكل ذلك، وحددوا أماكن تلك الثروات في جميع البلدان، بما فيها إيران، واحتفظوا بها لهم.

عموماً، كانت بلداننا بلدان الشرق محط أنظار هؤلاء وموضعاً لدراساتهم منذ ثلاثة قرون أو أكثر، إلا أن تقدم الزمان زاد في سعة خبرة متخصصيهم، وجعلهم يدفعون بأعداد أكبر إلى تلك البلدان لدراسة أوضاعهم، وكانوا يجمعون المعلومات وينظمونها حتى بلغ علمهم بأهالي هذه البلدان درجة تفوق ما يعلمه أهالي هذه البلدان عن أنفسهم، فقد درسوا مثلاً نفسية القبائل القاطنة لبعض أنحاء إيران، كالبخاريين والقشقائيين والشاهونيين وغيرهم، وذلك لكي يفهموا عن هذه الأقوام ما يساعدهم في تحقيق مآربهم في تلك البلدان. كما درسوا المدن والقرى الموجودة في إيران، بدءاً من القرى النائية والجبليّة وحتى المدن الكبرى، درسوا كل ذلك، وأرسلوا خبراءهم ورسموا الخرائط وسجلوا عليها ملاحظاتهم، وحددوا الأماكن الغنية تهيؤاً للنهب. وقد اختلف السلاطين والحكام وتفاوتوا في درجة عمالتهم لهؤلاء، فبعضهم لم يكن غارقاً في الخيانة إلى أقصى حد، واستسلم البعض الآخر لهم استسلاماً تاماً.

كنت في همدان مرة، فأراني أحد الأصدقاء خريطة كبيرة لهمدان . لعل مساحتها متر مربع . وكانت خريطة مفصلة تماما ظهرت عليها جميع قرى وضواحي مدينة همدان . كما ذكر لي . وقد ظهر عليها عدد كبير من القرى والضواحي، والملفت أن بعض المناطق من المدينة لَوْنَت بلون معين، وقد فسر ذلك الشخص هذا الأمر، بأنهم يريدون تمييز المناطق التي تتمتع بثروات معينة، كالماس أو النفط أو غير ذلك، وهذه المناطق لم تستثمر لحد الآن، إلا أنهم يعلمون مكانها وما تحوي.

على أية حال، إن هؤلاء وفدوا إلى البلدان الإسلامية وهم يسيرون طبقا لمخطط مرسوم حددوا فيه تفصيلا لأوضاع البلدان الإسلامية، وإيران . التي هي محط ابتلائنا . ثم أنهم قاموا بدراسات نفسية تمكنهم من تحقيق الاستيلاء على تلك الثروات الموجودة في تلك البلدان دون إزعاج ودون استشارة الناس واستفزازهم. لقد أعدوا في هذا المضممار دراسات مفصلة، وأدركوا في النتيجة أن وجود أمرين في البلدان الإسلامية يحول دون تحقيق مقاصدهم هما: الإسلام كدين، أولا: فلو أن الإسلام طُبِّق على حقيقته وبالشكل الذي أراده الباري عز وجل فإن ذلك سيعرّض المستعمرين إلى هزيمة ساحقة. والثاني: هو علماء الإسلام، فلو تمتع هؤلاء بقوة ما ولو أنهم كانوا مقتدرين في تلك البلاد، وبالشكل الذي ينبغي، فإن ذلك سيكون مانعا من تحقيق أهدافهم وبالصورة التي يطمحون إليها ويرتبط هذان الأمران بالشعب، ولو أن أحدهما حقق له موقعا بين أفراد الشعب فإن الشعب بأسره سيكون قويا، لذا فكروا أن يحطموا هذين السدين وبأيدي الشعوب ذاتها. أي أنهم سعوا في دفع شعوب تلك البلدان، وفي أي موقع كانوا، إلى المبادرة إلى تحطيم هذين السدين. وقد انصبت جهودهم الإعلامية منذ القدم في هذا الاتجاه، للقضاء على هذين العنصرين الهامين، وهما بصدد الخطر الذي يهدد الاستعمار وأهدافه. وهما يمثلان أشدّ مكانم الخطر والباقي يهون بالنسبة لهما.

طبعاً، هناك أمر ثالث لا بد من ذكره، وهو نوع الثقافة التي تحملها المجتمعات، فقد أدرك هؤلاء بأن المجتمعات إذا امتلكت ثقافة مستقلة وصحيحة، أدت إلى ظهور تجمعات سياسية مستقلة وأمنية فإن ذلك سيعود بالضرر عليهم أيضا، لهذا كانوا . من جانب . يرون بأن ما يشكل عائقا في طريقهم هو العلماء والإسلام بذاته. ومن جانب آخر كانت الثقافة هي الأمر الآخر الذي يتهدد مصالحهم بالخطر، فقد يؤدي ذلك إلى ظهور شبان ورجال أكفاء، وأن من المحتمل أن تقع مقدرات البلدان بأيدي هؤلاء، مما سيحول بالنتيجة دون تحقيق مطامعهم وآمالهم التي تتركز حول الثروات المدفونة في باطن أراضي تلك البلدان والثروات البشرية المتمثلة بأفراد تلك المجتمعات، وإن كانت الأولى هي الأهم بالنسبة لهم. لذا فقد فكروا مليا في القضاء على هذه الأمور الثلاثة.

أما فيما يتعلق بالإسلام فقد شرعوا بالترويج لمقولة أن الإسلام دين مرن . كان لا بد أن يتقدموا في خطتهم بشكل تدريجي . قالوا بأن الإسلام عقيدة تدور حول الدعاء والذكر، وتمثل نوعا من الارتباط بين الإنسان والخالق، وأن لا علاقة له بالسياسة ولا علاقة له بالحكومة، وقد بلغت مساعيهم الإعلامية في هذا المجال حدا ترك أثره على العلماء أيضا. لذا أصبح العديد من العلماء يتساءل ما هي العلاقة بين العالم والسياسة؟ وما هي علاقته بالحكومة؟ ما هي علاقته بنظام الحكم، فليشغل العالم بالصلاة في المسجد وما شابه ذلك من الممارسات وليدرس ويبحث، وليشغل نفسه بتوضيح آداب الإسلام للناس.

لقد أدرك هؤلاء بأن ما يؤديه العلماء من صلاة فرضها الإسلام لا تمثل أي ضرر عليهم، فليصلوا ما شاؤوا، ليقطعوا صلتهم بالنفط ثم ليصلوا ما شاؤوا، ليصلوا حتى تنقطع أنفاسهم، وليدرسوا ما طاب لهم، وليتباحثوا حول دروسهم ما طاب لهم، لكن ليكفوا أنفسهم عن التدخل ضد السياسات الاستعمارية وليدعوهم وشأنهم.

وقد روجوا لهذه المعاني إلى درجة جعلت السواد الأعظم من الناس يقتنع بصحة هذه الأمور. والآن يدور همس حول عدم أرجحية تدخل العلماء بالسياسة! فليس من شأن العلماء أن يدققوا النظر في طبيعة الحكومة، أو أن يطالعوا في ممارسات هؤلاء الظلمة من الناس، وأن على العلماء أن يهتموا بمدارسهم وإقامة صلاة الجماعة في الظهيرة والمساء، حتى أن الناس لا ينظرون إلى العالم في غير هذه الدائرة.

يزعمون أن الإسلام في الأساس لا علاقة له بالسياسة، فالدين لا علاقة له بالسياسة. السياسة لهم ولنا الدين، ومراكز القوة والنفوذ في أيديهم وما تبقى من مساجد مليئة بالعجزة فهي لنا، وتلك هي القسمة التي ارتضوها سابقا وما يزالون.

والذين تجرأوا قليل، نعتوهم بالرجعية، فالدين إنما جاء إلى البشر لكي يغفوا على أحلامه، هذا هو الدين في زعمهم! الدين هو نتاج أو وسيلة الأثرياء والأقوياء، لكي يحذروا به الناس، ومن ثم يصادرون حقهم ومقدراتهم. شيئا فشيئا راح الناس يصدقون مزاعمهم، حتى أنك لتجد بعض العلماء والمعممين يرددون وراءه: لا.. لا يمكن أبدا تطبيق الشريعة.. إنه أمر يعود إلى 1400 سنة.

هكذا عرّفوا الإسلام إلى المجتمعات الإسلامية، فالإسلام صلاة وصوم، ولا شأن له بحياة الشعوب، وأن العلماء يستخدمون الدين كأفيون للأمة، لكي تغفو وتنام وتضعف، لكي يسلبهم الدين قدرة

الرفض والمقاومة إزاء غارات الناهبين، وأبواقهم تروّج لكل هذا وذلك يصدقهم، حتى المتنورين دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث في القرآن والسنة.

لا ينبغي لنا أن نصدق كل ما يقال أو يروّج له بين الناس أنها من نوع من الأمراض.. المعدية، فالإنسان السليم لا ينقل موضوعا أو يعمل على نشره دون تفحص وتأمل. ولا يلزمنا بحث عميق في القرآن، إن مجرد مطالعة ولو سطحية سترشدنا إلى أهداف الأنبياء.. ولماذا بعثهم الله إلى الناس جميعا.. وهل حقا أنهم جاؤوا يدعون الجماهير إلى النوم، وهل كانوا حقا عملاء للأقوياء.

وهل جاء القرآن للذكر والدعاء وكتابة الحروز؟ هل طالعوا القرآن حقا؟ هل عرفوه؟ من يطالع القرآن يرى فيه آيات عن الحرب.. تدعو إلى حرب، حرب من؟ حرب الأقوياء. ليست آية أو آيتين إنما آيات عديدة تبحث في الحرب ولقد كان تاريخ الإسلام في عهد النبي (ص) تاريخ حرب مع الأقوياء، والقرآن كتاب (حركي) أكثر منه في شيء آخر. كتاب يدعو الشعوب إلى النهوض، إلى كسر الجمود والخنوع والصراع مع الطواغيت.

ومذ بُعث النبي في الحجاز، تصدى له الأقوياء وحاربوه، بعضهم كانوا تجارا أثرياء في مكة، وبعضهم "الطائف" كانوا من أصحاب النفوذ والقدرة والمال كأبي سفيان وغيره. إنهم يعيشون حياة البذخ والترف كالسلاطين لا يعوزهم شيء.

وكان صراع النبي مع هؤلاء. وعندما هاجر إلى المدينة، عاش مع الفقراء لا مع الأثرياء، عاش مع الفقراء ليستيقظوا، ليهبوا من رقادهم ويواجهوا الأثرياء، الذين أسسوا ثراءهم على نهب الفقراء، ولقد كانت حروب النبي كثيرة وكانت كلها مع الأثرياء والظالمين.

ولنغص أكثر في التاريخ، فنقف عند سيدنا موسى (سلام الله عليه)، لقد حمل عصاه وواجه فرعون مصر..

إنه لم يقف إلى جانب فرعون ويدعو الناس إلى الاستسلام!! لقد هب موسى بعصاه وأعلن الدعوة إلى الله..

وإبراهيم الذي حمل فأسه ليحطم أصنام الطغاة، ووقف يتحدى الظالمين دفاعا عن الجماهير، لقد كانوا يرون واجبه في النهوض ضد الظلم الذي يصبّه الأقوياء على الأمم المغلوبة، فكيف يمكننا أن نقول إن الدين هو من صنع الأقوياء لكي تغفو عليه الشعوب؟ إنها دعايات الاستعمار التي يروّجها

من أجل إبعادكم عن القرآن والإسلام ليحطموا حقد السد المنيع.. وقد أفلحوا في ذلك، وتحطم هذا السد أمام أعين المسلمين، واستسلم المسلمون لنوم عميق، ثم دَعَوْهم لحرب الإسلام دون وعي، وهذا هو معنى ما يقوله البعض ويردده، ما هي علاقة الإسلام بالحياة، هذه المقولة حرب على الإسلام، جهل الإسلام.. ما هي علاقة الإسلام بالسياسة؟.. إنها تعني حرب على الإسلام يقوم بها المسلمون أنفسهم.

ينبغي علينا أن نرى مع من كان رسول الله يحارب؟ مع أقوياء مكة وطواغيت الحجاز.. علينا أن ننظر الخلفاء من بعده.. الذين قبلهم أو لا قبلهم ضد من كانوا يحاربون.. لقد حشدوا قواتهم ضد سلاطين إيران وسلاطين الروم وحاربوهم.

لقد دَعَوْا الشعوب إلى النهوض لا إلى النوم.. دَعَوْا المستضعفين إلى الثورة ضد ناهبيهم.. ولقد فتحوا إيران وبلاد الروم، وكانت حرباً من أجل الإسلام، ولم يكن هناك من يساوم السلاطين، وكان منطق الإسلام الحرب دون هوادة مع الطواغيت والأقوياء والناهيين. من أجل هذا حارب رسول الإسلام وخلفاؤه من بعده.

وفي عهد أمير المؤمنين (سلام الله عليه) الذي ابتلي بحرب داخلية، لو لم يتصدَّ بحزم لزال الإسلام، ولقرأ معاوية عليه الفاتحة.

كان معاوية يعيش سلطاناً في الشام وكان له جيش لا يعرف غير الطاعة العمياء، وكان معاوية يمثل خط القوة، وكان علي يمثل خط الروح. ولقد نهض أمير المؤمنين بوجه معاوية الذي كان وجوده خطراً يتهدد الإسلام بالفناء ومن ثم يستعبد العباد والبلاد.

هؤلاء هم أئمتنا (ع)، وقد قُتلوا جميعاً لأنهم نهضوا ضد الظلم، ولو كانوا يدعون إلى بني أمية أو بني العباس لوضعوهم فوق الرؤوس. ولكن أئمتنا الذين لم تكن لهم قوة يقاتلون بها، ولم تساعدتهم الظروف على ذلك، كانوا يقاومون لنسف دعائم الظلم، لهذا كانوا يُسجنون ويُقتلون.

فهل سُجن موسى بن جعفر لأنه يصلي ويصوم؟ هو كان يدعو لهارون الرشيد؟ هل كان يقول لناس لا تتفوهوا بكلمة واحدة مهما صبوا الظلم عليكم؟ أم أن الأمر غير ذلك!! أم أنهم رأوا فيه خطراً يتهدد نفوذهم وحكومتهم ويعرض وجودهم للزوال.

---

هوية الخطاب رقم 34

فرنسا/ باريس/ نوفل لوشاتو: 12 ذي القعدة 1398هـ الموافق 15 أكتوبر 1978م.

الموضوع: دراسة الاستعماريين لعادات وتقاليد الشرق.  
المناسبة: وفود الطلاب المسلمين المجاهدين خارج البلاد إلى باريس.  
الحاضرون: جمع من طلبة الجامعات الإيرانية المقيمين في باريس .